.. ثم بكى عند قبر فارغ

قصة بقلم ابراهيم زعرور

عندما غادر طلال القاعدة في الصباح الباكر ، لم يكن يدري ما يترتب عليه أن يفعل بالتحديد . وطوال مسافة الستة اميال التي قطعها ماشيا قبل ان يصل الى الشارع الرئيسي كانت الامواج العاتية تتناوبه بشكل فظيع . فما ان تبرق الفكرة في رأسه حتى تلفها العتمة الشاملة لتولد في اعقابها فكرة اخرى تذوب بدورها قبل ان يتاح لها وقت للتبلور .

فمنذ ان تلقى نبأ استشهاد شقيقه الاصغر « نصر » والدنيا تطن في أذنيه طنينا ثقيلا متواصلا والاشياء تلف من حوله .

حاول الشباب في القاعدة مواساته بكلام كثير ، غير انه كان أسبق في مواساة نفسه عندما قال « لم يكن نصر أول من استشهد » . ولكنه احس لكلامه برنين حقيقي اجوف الروح ، خال من كل قناعة. أذ ان المسألة تغدو مختلفة تماما ، حينما تصبح انت نفسك موضوع الالم .. وبدا في المساء مشتتا مقهورا الى حد الموت .

ـ القضية انني لا ادري ماذا أفعل !

فقال له احد الشباب وقد توقف عن تنظيف سلاحه :

ـ لا أكثر من ان تزور القبر غدا .

وازاء الحقيقة البسيطة تسلل اليه شعور بالوحدة . فقد كان هذا هو المفهوم الثقيل الذي يتلوى في وجدانه .. (لا اكثر من ان ازور القبر) .. أية هزمة أقسى ، واي ضياع أمرّ من ان تضيع بين مثاليات الخيال وعنف الواقع .. « هل حقيقة ان هذا كل ما يمكن فعله ؟ » .

* * *

كانت الشمس قد ارتفعت عاليا .. وقد جاء النهار ساخنا منذ البداية . وانقضى اكثر من ساعة وهو ما يزال واقفا على الشارع منتظرا سيارة عابرة تأخذه في طريقها الى المدينة ، حيث مقبرة الشهداء . وقد بدأ الحر ينمل تحت جلده .. عبرت سيارة محملة بالبطيخ دون ان تعبأ باشارة يديه الراجيتين . كان تواقا للوصول الى المدينة في وقت مبكر ، مع قناعته التامة بعدم جدوى ما هو بصدده ..

عبرت سيارة فارهة من النوع النادر ، فلم يحظ منها سوى بحفيف الريح وقليل من الغبار عندما اجتازته .. فتعزز احساسه بالوحدة . أخذ يساوم نفسه ...

محمود شرف .. صديقه .. ظل ينزف امام عينيه حتى غادرته الحياة .

ابو الحكم .. كف عن ممارسة الحياة وهو يحمله فوق ظهره ولم تبدر عنه ادنى حركة تشير انه قرر الرحيل .

الشاب نضال .. عالج الموت بصدر ممزق بطريقة يقف لها شعر الرأس ، وكان صدره مفتوحا بشكل مرعب . توقف عن البقاء هو الآخر دون ان يستطيع قول كلمة وداع .

وآخرون ... وآخرون ... ممن تعودوا ان يموتوا بمحض اختيارهم . استعاد صورا شتى لمن مارسوا عملية الموت امام عينيه معتقدا أن ذلك سيجعل الموت أقل بهاء وأقل قدسية ...

« ولكن الموضوع يتخذ وجها آخر .. » .

وقد عبّر عن هذا الوجه بجملة مفككه الاوصال عندما قال للشباب لدى تلقيه النبأ . « انني لست ... لست حزينا ولكن ... » .

وكان الجميع يعرفون ما تعنيه هذه الـ « ولكن ... » .. فقبل أقل من اسبوع كان نصر في اجازة .. وقد زارهم في القاعدة . وكان يزور طلال في قاعدته كلما سنحت له الفرصة . وكانت حيويته وشبابه الدافق يثيران المرح في شباب القاعدة والفخر في أعماق طلال . لا يخجل من مرأوغته أمام الجميع ليحصل على قليل من النقود مما تعود طلال أن يدخره لحين الحاجة وكان قادرا على ذلك دائما .

يثير حوله عاصفة من الجدل السياسي بروح رفاقية واعية تجعل اكثر المتحفظين يحس بالتحفز .

وحتى طلال الكثير الاتزان صاح به ذات مرة ضاربا يده بقوة على كعب بندقيته :

ـ ولكن الكلمة الاخيرة تظل لهذه ..

فرد نصر :

ـ ولكنها بدون النظرية تظل مقيدة الطاقة .. تماما كقروشك التي تمنعها عني ولا تعرف كيف تستخدمها .

وفي حين كان الشباب يضجون بالضحك كان يقول :

ـ انني أقاتل .. واثناء ذلك سأعيش حياتي بكل خلية .. وحتى النهاية .

* * *

سمع نفسه يلوم نصرا بعتاب ينزف ألما وتحسرا عندما أطلت احدى المسلحات الكشوفة « كم قلت لك احترس يا نصر .. احترس .. » .

وما كاد يتقدم خطوتين الى الامام حتى كانت المسلحة تفرمل في محاذاته :

ـ اصعد يا رفيق ..

وكانت العيون ترحب به دون تحفظ .

اخذ يتطلع في الوجوه الشابة .. كل شيء يتوثب فيها .. صور مضاعفة لنصر « سأعيش حياتي بكل خلية وحتى النهاية » . وكان على وشك ان يقول لفتى يجلس الى جانبه « احترس يا اخي .. » ولكنه بدلا من ذلك وجد يده تمسك بكتفه بحنو . فصاح به الفتى :

ـ تمسك بكتفي يا رفيق .. فان سائقنا مجنون ..

وكان يشير بكلتا يديه بحركات كوميدية ، فضحك الآخرون .

* * *

يا للمدينة المجنونة .. تشيعين الموتى ولا تدرين بما يكابده الاحياء .

قيل له في المكتب : « لقد مات نصر بطلا حقيقيا » ...هه... وما الفرق ؟ فانا أعرف أمي حق المعرفة . أمي لا تستقبل الخبر كأمهات الكتب بالزغاريد .. ولا تعرف من الثورة الا ولديها . وعند نصر تنتهي

انكسارات ضوئية عبر زجاج النافذة

ضحك للنجوم الجديدة في عصبي المتهدم
وعلى ساحة الوجه تغدو الاساطير نملا
يدب يجرجر حباته ..
كان بيني وبين الاساطير منطقة من لهيب
وها هو نمل الحكايات يفتك بالزرع
ويبقى جبيني فلاة مخربة بالحوافر
كنت منشدها ، صوتها الارغني
يكاشفني بالحقيقة :

« استمع لي
سآتيك امّا انحسرت قليلا .. »

ولصوت المجيء تحن بروحي الحديقة
يتموج صمتي انتشاء بمقدمها في ضلوعي
ووجهي من الخشب اشتعلت ضفتاه .

والى وجهها يعبر الشرك المتمدد حول
انتظاري

وأنا غارق . نكهة العشق في الطمي
من يتقدم ؟
جسدي طافح بالظلام وضوء الشموع
فهل أتقدم ؟
لاكسر قشر المحارة ، أمضي الى الضوء
أجرّب افراحها اذ تمر ..
وافشل . ما زلت طفلا
وما زال حزني سريري .
حينما يكشف الشعر الاشقر المتماوج
واجهة من زجاج تلألأ في ساحة العمر
تبقى رسومي مشدوهة ، وأنا
غارق في حضوري
تتدحرج عن كتفي العربات
ويصبح في ساحتي اللحم البشري
محطة أرواح
ووجهي فلاة يباركها الصمت وتغفو
على صدري الظلمات .
للشموع التي يوقد الوجه ضوء غريب
أتحول فيه جسدا ،جبلا فاقدا للحياة .

بغداد

ياسين طه حافظ

حدود الوطن . كان الله في عونها ... كيف تتلقى النبأ » .

يوم غادراها امسكت بكتفه وكان الرجاء صارخا في عينيها : اعتن بأخيك يا طلال .. اعتن بنصر .. اضعه وديعة بين يديك .. » .

عاد للتجوال بين البدايات والنهاية القاسية « لقد شيعته المدينة بكاملها » .

بدت له المدينة صاخبة بطريقة مذهلة .. فالاشياء تندفق في جميع الاتجاهات ، والرصيف نفسه غير مستقر ، النزق يتحفز في الوجوه ، والقلق يتسرب اوراق الاعلانات ودعايات افلام « الكاوبوي » .

اخذ احساس بالتفرد يتسرب الى اعماقه ازاء الحياة الصاخبة من حوله . فولد في دخيلته ان هؤلاء الصاخبين مدينون له بشكل ما.

سأل في المكتب :

ـ ألم يترك نصر شيئا ؟..

وشعر بالتفاهة والسخف المحدقين بواقعه بقوة .

ـ لم يترك الرفيق نصر شيئا .

يا للمدينة المجنونة .. لا تشيع الا الموتى .. وبدا شعوره بالتفرد يقوده الى ان نصرا قد مات مظلوما « ليس لهذه المدينة مثيلة في العالم .. » . صاح به بائع الخضر المتجول : « حط عينيك في رأسك ... ظهرك .. ظهرك » .. « حمره يا بندوره » .. « اصابع الست يا خيار » .. « اللي ما يشتري يتفرج » . وكان التعب والجوع قد قطعا شوطا بعيدا في اعضائه . فعرج على مطعم شعبي يقلي « الفلافل » ورمى بقطعة نقدية فوق الحجر الرخام .. وكان المكان مزدحما .

تطلع صبي المطعم اليه مليا وهو يصر الاقراص الساخنة .. وكانت عيناه تبحثان بحذر عن شيء ما ... وفي حركاته توجس من نوع خفي ... وفي لحظة خاطفة ، وبينما صاحب المحل ينصرف الى بعض الزبائن ، اختطف الصبي قرصين آخرين واضافهما الى الصرة متظاهرا بالانهماك وكانت عيناه تضحكان بحب غامر ، فتناول الصرة وهو بين الابتسام والبكاء .

ـ احترس يا صغيري ... احترس .

ـ ولا يهمك يا رفيق ...

ومشى بخطوات متثاقلة ، وعيناه تحتضنان العالم وقد اصبحت دعائم الاحتمال لديه هشة للغاية ، فامتزجت صورة الصبي بصورة نصر حتى غدتا ممتى واحدا لا يحده حدود ، ومرقت طائرتان عند معبر السماء الغربي ، فتذكر انه قد تأخر كثيرا ...

* * *

تقع المقبرة في ظاهر المدينة الشمالي في بقعة مستوية يحيطها سياج لم يعتن بتثبيته جيدا ، وكانت القبور صفوفا متوازية تقوم على رؤوسها صفوف حجرية بيضاء كأنها طوابير من المقاتلين وضعوا أسلحتهم الى حين ... وثمة قبور اخرى فارغة في الجانب الآخر لا يقوم الى جانبها غير تلال صغيرة من التراب ، مفتوحة الاشداق في انتظار المزيد من القادمين ..

اما عند معبر السماء الغربي فقد عادت الطائرات تمرق بجنون وقد اشتد هزيم الرعد ...

وعلى جانب المقبرة وقف شاب متعب القسمات وكان يلوم الفراغ بطريقة تنزف حسرة « لقد آذيتم انفسكم ايها الاولاد ... آذيتم انفسكم ... قلت لكم دائما احترسوا ... احترسوا ... » . وأخذت القبور تتراقص امام عينيه .. وكان يبكي على قبر فارغ .

الكويت

ابراهيم زعرور